المقتطف

الجزء الأول من المجلد الحادي عشر بعد المئة

١٥ يونيو سنة ١٩٤٧ ٢٦ رجب سنة ١٣٦٦

مآثر العرب
على الحضارة الحديثة

١ — غلق مدارس أثينا

على كثرة ما وقع في عصر يوستنيانوس من الاحداث فان أعظم هذه الاحداث جميعاً من وجهة النظر العلمية والاجتماعية، حدثان: الاول غلق مدارس الفلسفة في أثينا، والغاء نظام القنصلية الروماني. فان ما خلفت هذه المدارس من الأثر في عالم الفكر وما خلق ذلك النظام من أثر في عالمي السياسة والتشريع، وما ينطوي وراءهما من تقاليد القرون العديدة، يجعل لهما تلك القيمة الكبيرة التي نعزوها إليه. وليس لنا أن نتكلم هنا في شأن نظام القنصلية الروماني، ونقتصر على الكلام في غلق مدارس أثينا.

ظلت مدارس أثينا موضع عناية العقلاء والفضلاء من أمراء الرومان، ومضت مستظلة بحمايتهم أزماناً طويلة. ولقد أنشأ الامبراطور «هدريانوس» في أثينا مكتبة جامعة عين لها مكاناً خاصاً وزينه بالصور والتماثيل، وسقفها برخام الالبستر الجميل، ولقد أقام ذلك البناء في صورة شرفة واسعة الجنبات يحملها مئة عمود من الرخام الفروجي. وخصص الامبراطوران من آل أنطونينز مرتبات سخية للقائمين على هذه المدرسة، فكان مرتب كل أستاذ في السياسة أو الخطابة أو المذهب الافلاطوني أو المذهب المشائي أو الرواقية أو الأبيقورية يتحوالي عشرة آلاف درخمة (حوالي ٣٠٠ جنيه مصري). فلما [illegible]

أوريليوس أنطونينوس ألغيت هذه المخصصات ثم أعيدت ، ثم أنقصت ثم زيدت ، بحسب أهواء الامبراطور القائم وبحسب الحالة الاجتماعية والفكرية التي تناوبت الامبراطورية الرومانية . ولقد بلغ حال تلك المدارس من الاضطراب مبلغاً كبيراً في حكم خلفاء قسطنطين

ولقد نعلم أن أسلحة القوط وجيوشهم قد دمرت الجزء الأكبر من حضارة أوربا . ولكن هذه الأسلحة المدمرة كانت أقل أثراً في هدم مدارس أثينا من انتشار دين جديد في جوف الامبراطورية الرومانية . فان رجال النصرانية قد ألغوا العقل وأحلوا محله حكم النقل والايمان المطلق ، وألقوا بأولئك الذين اعتبروهم كفرة أو من أهل الشك الى النيران تأكلهم وتذهب بريحهم . وعمدوا فضلاً عن ذلك الى مجلدات ضخام حملوا فيها على كل ما خلق عقل القدماء من آثار الحكمة والعلم يرمونه بالمروق والارتداد والكفر . ذلك بأنهم اعتبروا تلك الآثار من المحرمات التي تسمم عقول المؤمنين .

على ان البقية الباقية من الفلاسفة الافلاطونيين حتى عهد يوستنيانوس ، كانوا قد انحدروا عقلياً الى درجة كبيرة ، حتى انهم مزجوا ذلك المذهب الالهي الروحاني بكثير من الخرافات وغلفوه بالأساطير والسحر . وفضلاً عن ذلك فان بقاءهم على وثنيتهم في قلب دنيا نصرانية ، قد ولد الشك فيهم في قلوب الحكام والأمراء ، حتى لقد ظن انهم قد يعملون سراً على الاضرار بمصالح الدولة .

بعد موت الامبراطور يوليان بقرن كامل دعي « إفروقلوس » ليلقي دروس الفلسفة في الاقاذيميا . ولقد بذل في هذه المهمة أقصى الجهد ، وأثمر أعظم الثمرات ، تناول في دروسه فلسفة الأخلاق والالهيات وما بعد الطبيعة ، وكان مما تناوله من البحوث انه وضع ثمانية عشرة قضية منطقية ينقض بها قصة الخلق النصرانية . ولكنه الى جانب هذا كان يدعي القدرة على الاتصال بالحكمة وثنية ، ويقول علناً انه محيط بالكثير من أسرارها . وحدث خسوف في أواخر عمره ، فكان ذلك عنده نذير باقتراب ساعته ، فلما مات جمع بعض تلاميذه كل ما خلفه من أوراق ، وكذلك كل ما كتب حواريه « إزيدور » ، واحتفظوا بجميع ذلك ليكون للاخلاف من بعدهم دليلاً على ما وصل إليه العقل اليوناني إبان ذلك الزمان من انحطاط وتطوح مع الوهم والأساطير .

غير ان « السلسلة الذهبية » ، سلسلة الفلاسفة الافلاطونيين كما كان يدعوهم القدماء ، ظلت متصلة أربعين سنة بعد موت « إفروقلوس » حتى أصدر يوستنيانوس أمره الامبراطوري بأن يصمت آخر لسان تحرك بقضية فلسفية في جنبات المدارس في أثينا ، والاقاذيميا على الأخص .

كان آخر هذه السلسلة سبعة من الفلاسفة جمع بينهم العلم وألفتهم الصداقة هم : ديوجينيس (١) وهرمياس (٢) وأولاليوس (٣) وإفرسقيان (٤) ودمسقيوس (٥) وإزيدور (٦) وسنبلقيوس (٧) ، لم يرضوا الارتداد عن دينهم الى دين أميرهم فراحوا يهاجرون الى بلاد أجنبية لعلهم يجدون فيها من الحرية ما أنكره عليهم بنو جلدتهم.

كانوا قد سمعوا ، أو تراءى إليهم زوراً ، إن جمهورية أفلاطون قد طبقت عملياً في بلاد فارس ، وأن ملكها الحر الصالح قد أقام العدل وعضد الفضيلة في تلك البلاد الحرة السعيدة . فلما وفدوا إلى بلاط كسرى الذي أشيع عنه أنه فيلسوف وعالم ، ألفوا أن مفاسد الدنيا التي خلفوها من ورائهم قد سبقتهم إلى بلاد فارس ، وإن دولة كسرى ، لم تكن أشرف ولا أفضل ولا أعلم ولا أحكم من عالم الهمج الذي تركوه فراراً من الشرور .

لقد صدمتهم حقائق الحياة الانسانية ، فقضوا أعمارهم في سلام ، وخلفوا الدنيا بغير جلبة ، وانحدروا الى جوف الزمن ومعهم آخر ما خلفته الأكاديميا من الآثار الدنيوية .

وكان ذلك أول اتصال للشرق بعلم الاغارقة الذي نهل منه العرب.

٢ — الحضارة العربية

تفرد العرب في العصور الوسطى بأن كانوا حفظة المدنية والقوامين عليها . كذلك استطاعوا أن يقاوموا تلك الهمجية التي اجتاحت أوربا وهزتها من الأعماق وزلزل قواعدها الثابتة توالي الهجمات الحربية والمغازي التي شنتها عليها شعوب الشمال . وفي ذلك الوقت ، وفي خلال هذه الفوضى الغامرة ، عكف العرب على ثمرات العقل الأغريقي يحيون منه ما أماتت الهمجية . ذلك بأن العرب لم يقنعوا بما اجتمع لديهم من ثروات العالم الذي دان لسلطانهم ، بل عمدوا الى سبيل العلم والمعرفة يفتحون بها ما استغلق من قضايا العقل ، وما استكن من أسرار الطبيعة .

إن حروب الغزو التي شنها العرب عقيب انتشار الدعوة ، وهي حروب قلما تخللها شيء من الانشغالات المدنية ، قد ظلت قائمة خلال القرن الأول من التاريخ الاسلامي متوجة بأعظم الانتصارات . وحتى سنة ٧٦٠ م ، وهي تاريخ سقوط الدولة الأموية ، لم تظهر في حياة العرب بادرة تدل على أن تلك الفترة الحربية ، بما يقع في أثنائها من فوضى وارتجاج ، سوف يعقبها عهد تكون أجلى مظاهره الحضارية ، نهضة عقلية ارتقائية النزعات .

في ظل الدولة العباسية بدأ عهد من الرقي المدني أخرج العرب من غفوتهم التي

---

(١) Diogenes (٢) Hermias (٣) Eulalius (٤) Priscian (٥) Damascius (٦) Isidor (٧) Simplicius

عرفوا بها في العصرين الجاهلي والاسلامي الأول ذلك بأن خلفاء العباسيين قد ظاهروا حركة التثقيف بعنايتهم وأمدوها بسلطانهم فأثمرت سراعاً وآتت أكلها ، نشحذت الأذهان بمختلف المعلومات ، ونقل إلى العربية مؤلفات وكتابات ، كانت أساساً لأخرى قامت عليها واستمدت منها ، حتى أصبحت العربية مصدر الدرس والبحث في الشرق وفي كل مكان استظل بسلطة العرب.

وللخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يرجع الفضل الأول في حفز الهمم وتنبيه الأذهان الى دراسة العلوم الصحيحة . ولقد ورث العرب نزعة قوية الى علم الفلك ، فإن كل الأمم البدوية التي تعيش تحت سماء صافية لامعة النجوم . تحفزهم الى ذلك البيئة والضرورة . ولكنهم رغم ذلك لم يكن لهم تقويم زماني يرجعون إليه حوادث أيامهم وحياة رجالهم ودولهم ، وإنما اتخذوا السنة القمرية وسيلة الى معرفة الأشهر ، لما للأشهر عندهم من علاقة ببعض التقاليد والعقائد . ولم يصح للعرب تقويم يحدد أحداثهم إلا من بدء الهجرة . غير أن ذلك التقويم كان سبباً فيما أبدوا في عصور حضارتهم من حب لعلم الهيئة وعكوف عليه .

قال اسكندر فون همبولد :

« كان العرب بطبعهم ذوي كفاءة لأن يؤدوا دور الوسيط الأمين في تكييف عصر من عصور الحضارة تأثر به كل الأمم التي عاشت في تلك المنطقة الشاسعة الواقعة بين الفرات والوادي الكبير (في الأندلس) والجزء الجنوبي من وسط افريقية . لقد كان للعرب نشاط لا يباري دمغ عصراً من عصور التاريخ بطابع ثابت لا يمكن محوه . كذلك كان لهم نزعة تسمحية عريقة في الحرية ، مناقضة تمام المناقضة لنزعة اليهود التعصبية ، فاختلطوا بالشعوب التي غزوها من غير أن تعود بهم الذكرى يوماً الى أمم الفاتحين أو الى تفوقهم القومي أو الى تقاليدهم التي خلفوها من ورائهم في صحاريهم ، بالرغم من تأثرهم بمختلف البلاد التي غزوها والأراضي التي نشروا عليها سلطانهم . وبينما نرى أن السلالات الجرمانية لم تستطع أن تستوعب اللغة البولندية الا بعد زمان طويل من هجرتهم ، فان العرب قد نشروا ، مع دينهم ، لغتهم المثقلة بتراث خالد من الشعر لم تبل جدته ولم تتخلخل أصوله ولم تضعف روحه ، حتى بعد أن تجاوبت به أنحاء « روقانس » في بلاد الاندلس .

٣ — التجارة وأثرها في الثقافة العربية

فاما فطن مؤرخو الفكر العربي الى ما كان للتجارة وانتشار المستعمرات العربية من أثر في الثقافة الاسلامية . فإن الامبراطورية التي شادها الخلفاء ، باتساع أرجائها وما حوت من ضروب الفن وصنوف الثروة ، وما أفادت من مختلف الأقاليم والأجيال والأمم ، وما

مخطوطة عربية في مختلف العلوم والفنون والآداب . هذا في مدينة واحدة ، فما بالك بما حدث في بقية أطراف ذلك العالم الاسباني الفسيح .

٤ — من آثار الحضارة العربية

لقد أثبت منصفو المؤرخين للعرب من الآثار الحضارية بذمة نواح كان لها القدح المعلّى في رفع مستوى الانسان إلى آفاق بعيدة المدى قصية الغايات . وإذا كان من الحق أن العرب لم يكونوا أول من ابتكر بعض هذه الآثار المادية ، فلا ينبغي أن ينكر عليهم فضل إنهم كانوا أول من أخرجها من مخابئها وانتزعها من بيئتها ، ونشرها في أنحاء العالم المتحضر . فإن هذه الأمة العربية التي نشأت في محيط صحراوي ، لم تكد تخرج من محيطها وتختلط بآثار الحضارة الرومانية ، وهي وريثة الحضارات القديمة ، حتى أكبت على الزراعة والاستقرار في المدن وفي الأودية الخصيبة ، فرفعت من مستوى تلك الصناعة وأضافت اليها من إبتكاراتها ما جعل من العالم العربي جنة متصلة النواحي ، وجعلت من القفار التي خرجوا المنبع في خلال أربعة قرون ، من القرن الثالث إلى السابع الميلادي ، مراعي نضرة ، ومزارع مثمرة وغابات ملتفة وحدائق دانية الثمرات .

على أنهم الى جانب ذلك قد استكشفوا في العالم الموات الذي حف بنهضتهم تلك ، ثمرات حضارية ظلت مقصورة النفع على بيئاتها التي نشأت فيها ، فتناولوها بالتهذيب ، ورفعوا من شأنها، وراحوا ينشرونها أينما حلوا وحيثما كانوا ، وفي جميع الآفاق التي استظلت بحضارتهم الجيدة . من هذه الثمرات الانسانية على كثرتها ، ثلاثة أشياء كان لها أكبر الأثر في رفع مستوى الحضارة في جميع العصور : هي الورق والبوصلة والبارود .

استند بعض المؤرخين على كتابات يغلب إنها مزيفة مدخولة بالتدليس ، تنسب شرف استكشاف هذه الأشياء إلى أهل الصين ، محاولين بذلك أن يسلبوا العرب حقهم التاريخي فيها . يقول المنصفون إن الصينيين عرفوا صناعة الطباعة منذ القرن الثامن . غير ان أشياع جوتنبرج وفوست وشوفر قد انتزعت منهم ذلك الشرف . فاذا كان العرب قد نقلوا عنهم مادة الورق ، وهي من أخص ما يتصل بالطباعة ، ألا يكون من المعقول أيضاً ان يكونوا قد نقلوا عنهم الطباعة أيضاً ؟ وماذا تقول في الذين يدعون بأنهم أخذوا عنهم البوصلة أيضاً وقد ظل أهل الصين إلى سنة ١٨٥٠ يعتقدون إن في القطب الجنوبي أتون ملتهب تتلظى ناره ؟ أما البارود ، فإن كان قد ثبت لأهل الصين حقهم التاريخي فيه فانهم لم يستخدموه بنفس الاسلوب الذي استخدمه به العرب .

ولا يفوتنا أن نذكر أنه في حصار مكة سنة ٦٩٠ م . استخدم المحاصرون نوعاً من القنابر ، وان البارود استعمل في مصر في خلال القرن الثالث عشر لرمي قذائف مسافات بعيدة فتحدث صوتاً كأنه الرعد . ولقد ذكر ذلك أيضاً في وصف وقعة بحريّة بين ملك تونس وأمير أغمبيليّة في القرن الحادي عشر ، وذكر في القرن الثالث عشر (سنة ١٣٠٨) في حصار جبل طارق ، وسنة ١٣٢٤ في حصار بايزه . كذلك استخدمه الملك اسماعيل ملك غرناطة سنة ١٣٤٠ ، والجزائريون سنة ١٣٤٢ ، ويؤخذ من وصف أهل فرّارة ان القنابر كانت تقذف بالبارود.

ولقد نقل أهل أوربا هذا الاستكشاف عند احتكاكهم بالعرب ، وأخذت جيوشهم تستخدم المدافع . ولو أن أهل أوربا هم الذين وصلوا الى هذا الكشف ، اذن لعثرنا في آثارهم على أقوال أو اشارات تدل على الخطوات التي تدرج فيها عندهم وتاريخ هذه الخطوات . ولكن الأمر على العكس من ذلك . فانك مهما استعمقت في بحث تاريخ العصر الذي استخدم فيه أهل أوربا هذه المادة ، فانك لا تعثر على أثر من تاريخ نشوئها عندهم . ومع هذا يحاول بعض المؤرخين نسبتها إلى أهل أوربا ، بالرغم من ان العرب استخدموها منذ نهاية القرن السابع الميلادي .

أمّا البوصلة فليس هناك أي دليل تاريخيّ على أن أهل الصين قد استخدموها في الملاحة . في حين يتصل بنا أنّ العرب أخذوا يستعملونها منذ القرن الحادي عشر الميلادي لا في الملاحة البحرية فحسب ، بل في سياحات القوافل عبر الصحراوات ، وفي تعيين سمت القبلة لتعيين اتجاه مكة تعييناً دقيقاً .

وكذلك كان الأمر في الورق . فعند منتصف القرن السابع الميلادي (٦٥٠ م) كان ورق الحرير من منسوجات سمرقند وبخارى . وفي سنة ٧٠٦ م فكر يوسف المكّي في أن يستبدل الحرير بالقطن في صناعة الورق ، فأخرج بذلك الورق الدمشقي الذي وصفه مؤرخو الأفارقة . وفي إسبانيا شاعت صناعة الورق من البكتان والقنّب وشيدت لصناعته المعامل الواسعة ، وتنافست في اخراج مختلف أنواعه وضروبه كثير من المدن الأسبانية وفي مقدمتهم بلنسية . وفي القرن الثالث عشر استخدم الورق العربي في قشطالة ، ومن ثمّ انتقل الى فرنسا وإيطاليا وانجلترا والمانيا ، وما يشهد للعرب بمهارتهم في هذه الصناعة ، كشهادة مخطوطاتهم القديمة وقد خطوها في ورق صقيل متين مُرَيَّشة بضروب من الزخرفة هي موضع إعجاب العالم الى الآن .

فلا عجب إذن إذا نزع منصفو المؤرخين في العصر الحديث الى الاعتراف بفضل العرب

وفضل تفاقتهم على جميع المرافق الحضارية التي هي أعظم مظاهر المدنيـة الغربية . فإنه في خلال الفترة الواقعـة بين القرنين التاسع والخامس عشر ، لم تخط الحضارة الغربية خطوة واحدة نحو الأمام إلاّ بفضل ميراثهم عن العرب ، سواء أفي الناحيـة المادّية ، أم الناحية الثقافية ، كالفنون والعمارة والهندسة والآداب والعلوم .

٥ — تأثير الحضارة العربية في مدنية الغرب

كتب العـالم بايلي إلى فولتير الفيلسوف الفرنسي عبارة لا تزال تروى ويتناقلها المؤرخون فقال :

« إن الأمم الأوروبية بعـد أن هاجت في أحضان المسيحيّة ، قد عادت فاستنارت بغزوات العرب والاتصال بالأفارقة » .

أما المتفق عليه بين ثقات المؤرخين فهو أن أثر العرب في تنوير أوروبـا ، كان أمكن وأثبت من أثر الأفارقة . ومن الدلائل القاطعة على ذلك أن العرب هم الذين أحيوا في أوربا فلسفة الأغارقة وآدابهم وفنونهم ، وأعادوا الى العالم الحديث ذكر رجال من عظماء اليونان نسيت أسماؤهم وعفّى الزمن على آثارهم .

ولا خلاف مطلقاً بين المؤرخين في أن العرب هم الذين تبنّـوا الحضارة الاغريقيـة فترجموا عنها الى العربية جلّ الآثار الثقافية التي وصلت يدهم إليها في مختلف فروع المعرفة الانسانية . ولم يقفوا عند ذلك بل شرحوها وأضافوا إليها وعلّقوا وحشّـوا من عندياتهم عليها ، فأورثوا الحضارة الحديثة أشهى ثمراتها العقلية والفنيّـة ، وكانوا بحق آباءً كراماً ، لورثة عاملين ، حفزهم ما رأوا في الآثار التي نقلت إليهم ، الى البحث عن الأصول التي ترجم عنها العرب ، وما أن عثروا عليها حتى أكبّ عليهـا دارسون امتحانوا بالصبر على تفهم آداب هوميروس وفلسفة أفلاطون وارسطوطاليس وغيرهم من عظماء العالم الأغريقي القديم . ولقد قال المؤرخ « هايد » قولة حق إذ قضى : « بأنّ أكثر ما خلف الفكر اليوناني من الآثار العقلية التي عثرنا عليها في مخلفاتهم ، قد وصلت إلينا أول شيء عن الأمة العربية » .

لقد نقل العرب الى أنحاء أوربا ثمرات العقل الاغريقي ، قبل أن يبدأ الدارسون في أوربا التفقه في درس اللغة اليونانية في أواسط القرن الرابع عشر (١٣٦٠ م) وكان ذلك بمدينة فلورنسا أول شيء ، ثم بعد أن تفرق فقهاء اليونانية في أنحاء أوربا الشرقية بعد سقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح (١٤٥٣م) . ولا شك مطلقاً في أن كثيراً من الكتب

الاغريقية ، وبخاصة في العلوم ، قد نقلت أول ما نقلت الى اللاطينية عن المؤلفات والترجمات العربية .

أضف إلى ذلك أن كثيراً من المؤلفات الاغريقية الثمينة ، لم يعرف لها أصل إلاّ عن كتب العرب . ولنضرب لذلك مثلاً . ففي العلوم الرياضية نقل العرب كتاب العالم المندسي منلاوس الاسكندري في « المتديرات » ، وترجموه بعنوان « كتاب الاكر » ، ومن ثمت نقل الى اللاطينية ، ولولاهم لما عرف له أصل ، ولا ثبت خبر . كذلك هم نقلوا الى العربية كتباً ثمانية وضعها العالم افولونيوس البرغاوي في « القطوع المخروطية » ، نقل منها ابراهام الماروني (١٦٦١ م) الكتاب الخامس والسادس من مخطوطة عربية في مكتبة آل مديتشي في فلورنسا . ولولاهم لما استطاع الأطباء إكمال تعليق جالينوس على مقالة ابقراط في الأوبئة ، إذ عثر على الترجمة العربية في الاسكوريال ، ولما استطاع العلماء أن يعرفوا شيئاً عن مقالة أوسطوطاليس في الأحجار ، لولا الترجمة العربية المحفوظة في المكتبة الأهلية بباريس .

إذا تتبّعنا تاريخ المعرفة الانسانية ، وعرفنا أن أثر الثقافة الاغريقية قد امتد في الاسكندرية إلى ما بعد الطور الروماني ، لما استطعنا أن ننكر أن العرب هم الذين ظلوا قوّامين على كنز الثقافة فتعهدوه وحموه منذ العصر الاغريقي الى عصر النهضة .

يقول المؤرخ الفرنسي مسيو « ليبرى » : إن العرب اذا استحقوا التمجيد ، فانما يستحقونه لأنهم ظلوا حفظة الثقافة الاغريقية والهندية طوال عصور كفّت خلالها بقية الشعوب عن أن تنتج شيئاً ، وكانت أوربا ما تزال في جهالتها ، عاجزة عن أن تحمل الأمانة الثمينة . على أنك اذا أوديت بالعرب من صفحة التاريخ ، إذن لتأخرت النهضة في أوربا بضعة قرون » — ولا شك في أن مسيو ليبرى كان يصبح أقرب الى الحق اذا قال أن تلك النهضة ربما كانت قد اتجهت اتجاهاً آخر غير اتجاهها المعروف ، بل ربما كانت قد سلكت السبيل القويم .

* * *

وفي مجال العلم خاصة بزّ العرب سابقيهم الرومان ، فكانوا بحق ورثة العالم الاغريقي . أضف إلى ذلك أن العرب لم يقنعوا عند عظماء الاغرقة مثل أفلاطون وارسطو وأبقراط وديوسقوريدس واقليدس وبطليموس ، بل إنهم أكبوا على جماع الثقافة الاغريقية فنقلوا عن شعراء وخطباء وسفسطائيين ، لا ينبغي أن يقوم لهم ذكر الى جانب هؤلاء ، وفي ذلك دليل على أن نهمهم للعلم والمعرفة لم تكن تعرف حدوداً ، ولا تقف عند غرض جلّ أو ذلّ .

٦ — الفلسفة الكلامية

عرفت هذه الفلسفة في أوربّا « بالفلسفة المدرسية » : Scholasticism ، وهي في الواقع صورة محوّرة من فلسفة الكلام عند العرب .

نعرف أن العرب عكفوا على درس فلسفة المشائين ، أرسطو وأصحابه ، أكثر شيء ، ومن عكوفهم على درس هذه الفلسفة قد ولّدوا فلسفة الكلام في اللاهوت الاسلامي . ولقد يرجع تصوير هذه الفلسفة وتحديد قسماتها الى الجدل الخلافي الذي قام بين الواقعيين والإسميين من فلاسفة العرب ، وكان الاولون يجرون على مذهب ابن سينا ، والآخرون يجرون على مذهب ابن رشد .

ولقد حقّق المؤرخ الفرنسي « هورو » أن الكندي فيلسوف العرب ، كان المرجع الذي اعتمد عليه الاسكندر الهاليّـي وهنري الغنتي والقديس بونا فنتورا ، بينما اعتمد وليم الاوفرني من تعريفات الفارابي وحدوده ، كما استمد منها فنسنت بوفيه والبرت ماغنوس (الكبير) . ومما يدل على أن فلسفة الكلام العربية قد أثرت في اللاهوت النصراني حقيقة ، أنّ وليم الاوفرني كان يفضّل العرب على الافارقة . لأن الافارقة فلاسفة أكثر منهم لاهوتيين ، والعرب لاهوتيون أكثر منهم فلاسفة . ذلك بالضرورة على قدر ميوله ومقتضى نزعته .

على أننا اذا كنا نعتقد اليوم أن فلسفة الكلام ، سواء أعند العرب أم عند الاوربيين ، قد كانت من المباحث العقيمة ، فإنها قد أخرجت للبشرية بضعة مفكرين أحرار ، منهم المعتزلة عند العرب ، وقد ضاعت آثارهم أو تبددت ، ومنهم يوحنا اسقوطس أرغينا ، وبرنجاريوس وإبيلارد ، ووليم أوكام ، وتبعهم وليم هس وسافونارولا ولوثر وبرونو وكامبانيلا .

بعد أن وضع العرب يدهم الجدّدة على كل ما خلف الافارقة من ثمار المعرفة والحكمة ، فنمّوها وأوسعوا من آفاقها في جميع النواحي ، أسلموا بجماع ذلك إلى أوربا . وكانت إسبانيا أول بقعة أوربية تلقت عنهم . ففي القرن العاشر ، ذلك العصر الذي يمثل أقتم دورات الظلام في أوربا ، تركّزت في إسبانيا ، على ما يقول المؤرخ « هلنر » كل الثمرات الانسانية ، فنمت فيها الدراسات العليا التي رفضها جميع العالم الانساني وأطاح بها ، حتى في القسطنطينية منذ عصر ليون الايزوري (٧١٧ م) .

وفي الحق أنه منذ القرن العاشر الميلادي أخذ الفكر الاوربي في إسبانيا يتجه نحو سمت آخر . فلذلك ترجم برهنا الانجيل الكتاب المقدس الى العربية ، وقام الفارو Alfar القرطبي باللوم بحدة على أمم تركوا لغتهم وشريعتهم الى لغة العرب وشريعتهم ، فأخذ الفكر الاوربي في إسبانيا ينمو ويكبر ويذهب عن الطوق فظهر هنالك أيطون أسقف فيش ولويت الرملوني ، ورجل يقال له يوسف علّم أدلبيرو رئيس أساقفة ريمس ، وكلهم برز في الرياضيات والفلك أخذاً عن العرب وآثار العرب .

٧ — العلوم الرياضية

أمّ اسبانيا في عصر ازدهارها بالثقافة العربية ، أولئك الذين تعطشوا للعلم وأمضهم حب المعرفة . كان من أولئك دارسٌ كبير النفس كبير العقل يدعى غربرط (ولد في أوفرني حوالي سنة ٩٣٠ ، وانتخب بابا سنة ٩٩٩ باسم سلفستر الثاني وتوفى سنة ١٠٠٣ م .) ولقد عرف بعظاطراته وعلمه وأدبه وما تحمل عن الشاق في سبيل العلم وتحصيل المعرفة ، فدرس في مدارس فرنسا وإيطاليا والمانيا من غير أن يقع على مبتغاه من العلم ومن غير أن يجد فيها ما يشبع نهمته الشديدة للمعرفة ، فهبط اسبانيا حيث وجد ضالته من العلوم الطبيعية والرياضية ، فنقل منها الى فرنسا وإيطاليا والمانيا قدراً كان موضع إعجاب العلماء والمتعلمين ونشره في الأوساط العلمية فكان منهلها العذب ومورها الدافق . على أن روح ذلك العصر لم يكن ليترك رجلاً مثل غربرط من غير أن يدمغه بأسطورة أو يحوطه بخرافة ، فقال بعضهم ان هذا الرجل قد حالف الشيطان .

* * *

ينسب الى غربرط إنه أول من أدخل الارقام العربية الى تلك البلاد وانه أضاف الى الجبر والحساب بضعة مبادىء من وضعه . ويقول المؤرخون انه أول من ركب ساعة تقيس الزمن .

على ان بعض المؤرخين يحاولون أن ينتقصوا الأثر العربي في ثقافة غربرط ، فيقول بعضهم إنه لم يذهب الى قرطبة أو اشبيلية وهما من مراكز الثقافة العربية الكبرى ، بل اقتصر على زيارة لقاطنة قطالونيا طوّف فيها بأنحاء ذلك الصقع طويلاً . فمن ذلك كله لم يحل بين المؤرخين ان يثبتوا انه مدين بكل معرفته للعرب ، وان معرفته الفذة التي كانت موضع اعجاب معاصريه ، لا يمكن بل لا يصح أن يكون لها مصدر ، على ما يقول الثقة الثبت

« وليم أوف ملمسبوري » غير العرب وانها برمتها منقولة عنهم نقلاً لا تحوير فيه .
ان المثل الذي ضربه فربرط لأهل أوربا كان هذا فائق الاثر ، فراحت جماعة من المتعلمين يؤمون المنهل الذي استقى منه . وكان منهم هرمنوس كونترا كتوس الالماني (المتوفى سنة ١٠٥٤ م) مؤلف كتاب « تأليف البوصلة » ، والانجليزي أدلارد (حوالي ١١٣٠ م) الذي ترجم اقليدس عن العربية ، والايطالي كومبانا نوفارا الذي نشر « نظرية السيارات » ومنهم دانيل مورلي ، واوتو الفرزنجي ، وهرمن الألماني وافلاطون التيفولي . أما جراود الكريموني فقد ترجم في طليطلة نفسها كتاب الخازن وترجم عن ابن سينا والرازي وأبي القاسم والمجسطي لبطلميوس ، لا عن الاغريقية ، ولكن عن العربية . ولقد جمع جيرارد من علوم العرب في طليطلة كل ما وصل الى يده في الرياضيات والطبيعة والفلك ، وحملها الى أهل أوربا . وفيه يقول مؤرخ ان جيرارد عاش في طليطلة وفيها لمع نجمه .

* * *

يقول المؤرخ مونتوكلا : كان العرب حفظة المعرفة والى نشاطهم التجاري ندين بأول أشعة من النور لمعت في سماء القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، ثم يقول : في خلال ذلك العصر استمد كل الذين برزوا في الرياضيات من العرب وعلوم العرب ونشروا في احضانهم .

ومن الثابت ان كل الذين كثيراً من الأوربيين في العلوم المحضة قبل القرن الخامس عشر لم يأتوا بجديد لم يكن يعرفه العرب ، بل انهم نقلوا عن العرب نقلاً ، وقليلاً ما أضافوا إلى ما نقلوا . على ذلك كان ليوناردو دابيزا الايطالي ، وفيتليو البولندي ، ورمون لالي الاسباني ، وروجر باكون الانجليزي ، ثم أرنو ده فيلنيف الفرنسي ، الذي ينسب إليه انه استكشف كحول الخمر وزيت التربنتين وغيرها من المركبات الكيميائية .

وكان كل ما في أوربا في ذلك العهد من علم الجغرافية قاصراً على ما قال به الادريسي من تقسيم الكرة سبعة أقاليم ، وفي القرن السابع عشر عند ما حقق أبو اسحاق ابراهيم بن يحيى بعض الاخطاء الجغرافية ونشرها ، اضطر ابراهام هنكلمان الى أن يقول : « إن أكثر ما نحن مدينون به من الفضل والتنور ، وما يدين به أخلافنا ، إنما يرجع الى العربية » .

على أن الزيج المعروف الذي ينسب الى الفونسو العاشر وكذلك ما ينسب اليه من كلام في الأفلاك والكرات ، إنما هو عبارة عن مجمل مما خلف العرب في علم الهيئة . لقد استمد هذا الملك الذي نعته أهل زمانه « بالعاقل » كل معرفته عن العرب ، ولقد تقدمت على يده

العلوم عما استقى عن أولئك الأعراب فكان من حلقات الوصل بين نظام بطليموس الفلكي وكوبرنيكوس . على ان الثابت أن الزيج الألفونسي إنما هو استمداد من مختلف الأزياج الفلكية التي خلفها العرب بلا أقل شبهة .

عندما أراد لويس الرابع عشر أن يقيس الدرجة الأرضية على خط الزوال ليعرف بذلك حجم الأرض ، لم يكن يعرف أن الخليفة المأمون قد قام بنفس ذلك العمل قبل خمسة قرون في بغداد .

* * *

يقول بايلي : ان أول خطوة اتخذت في القرون الوسطى نحو احياء العلوم كانت ترجمة كتاب الفرغاني في « مبادىء الهيئة » أما الربي الاسباني « ابن عزرا » وقد نعت حيناً بالكبير ثم بالعاقل ثم بالباهر تقديراً لعلمه واعترافاً بما لكتابه « الكرة » من القيمة العلمية فقد ولد في طليطلة سنة ١١١٩م . وكان من الآخذين عن العرب في علم الهيئة ولقد نشر علم أساتذته الذين تلقى عنهم في أنحاء أوربا . وعن البتاني ، أكثر مما كان عن بطليموس ، استمد العالم ساكروبوسكو (المعروف باسم يوحنا الهاليفاكسي) مواد كتابه في « الكرات » . وعنه نقل المعلق يوحان مولر ، الذي علق على كتابات روجيو مونتانوس الفلكي العظيم ، أول ما عرف في العلم الأوربي عن علامات محيط الدائرة . وعن الخازن أخذ كبلر فكرة الانكسار الجوي . وربما رجع الى العرب الفضل الذي استحقه نيوتن بكشفه عن نظام تجاذب الأجرام ، أكثر من رجوعه الى سقوط التفاحة في بستان . فلا ينبغي للمؤرخ أن ينسى أن فيما كتب محمد ابن موسى[1] شيئاً عن حركة الأجرام السماوية وشيئاً عن قوة الجذب . وفي ذلك ما يكفي .

* * *

٨ — علم الطب

إن تأثير العرب في كل فروع العلوم الطبيعية ومنها العلوم الكيميائية والطبية ، لا يقل شأناً في التاريخ الانساني ، منه في العلوم الرياضية . ولقد كان روجر باكون وريموند لالي

(١) ترجمت كتب محمد بن موسى ونشرت في مجموعة لاطينية معروفة باسم :
Bibliot. arab. Philosophorum.

من تلاميذهم في علم الكيمياء ، وكانوا يسمونه « الصناعة الكبرى » ، كما كانوا من تلاميذهم في علم العدد والحساب .

ولقد أخذ عنهم ألبرت ماغنوس فلسفة اوسطوطاليس وكان يدعى البرتوس ، وهو البرخت جروتوس أو جروس ، وقد ولد في سوابيا سنة ١١٩٣ ، وهو من الانسيكلوبيديين المعروفين ، ومعلم القديس توماس اكوينوس أو توما الاكويني الذي سماه أهل زمانه ، كما سموا فربرط من قبل « بالساحر » .

وبعد سنة ١٦٠٠ ميلادية استطاع عالم نابه اسمه « فاريقيوس أكوابندنته » أن يقول في مؤلف له : « يرجع كل علمي إلى ثلاثة رجال سلوس من اللاتين ، وبولس الاجانيطي من الافارقة ، وأبو القاسم من العرب » .

في عالم السماء برز البتاني . وفي عالم الأرض برز الادريسي . أما في عالم الطب فقد برز ابن سينا وابن رشد . وظل أثر هؤلاء قائماً في عالم المعرفة ستة قرون حتى انتهاء القرن السادس عشر الميلادي على أن أثر ابن سينا في عالم المعرفة لم ينته بحلول القرن السابع عشر . فانه في القرن التاسع عشر نفسه ، ظهرت تعليقات على مؤلفاته في لوفان ومونبلييه في فرنسا .

ولقد اعترف بأثر العرب في هذا العلم كل كبار المؤرخين مثل بورهاف وهالر ، ويقول بروكر : « حتى حلول عصر النهضة العلمية ، ظل ابن سينا ، لا في دوائر العرب فحسب بل في دوائر أوربا المسيحية ، الحاكم بأمره في عالم العقل » . وفي أوائل القرن الثالث عشر نقل الدكتور البرتغالي بدرو جوان الذي كان رئيس أساقفة « براغا » ثم بابا باسم يوحنا الحادي والعشرين ، عن العرب كتابه المسمى « كنز المساكين » أو « دواء جميع الأمراض » ، ومقالته في « الصحة » ، ومقالته في « تكوين الانسان » ، حيث احتذاهم ولم ينحرف عنهم قيد شعرة .

ومن اسبانيا خرج جميع أطباء أوربا اطلاقاً ، ومنهم انتشر حب العلم الصرف وذاعت فوائده .

يقول هالر : ان الأطباء الاسبانيين في أثناء ذلك العصر الذين كان بنو جلدتهم يستردون من العرب أرض اسبانيا شيئاً بعد شيء ، استطاعوا أن ينقلوا الى أهل ايطاليا حب الآداب والعلوم » . وفي اسبانيا درس الأطباء اليهود الذين عرفوا في أنحاء أوربا بتبريزهم في صناعة شفاء الأمراض ، ومن ثمة نقلوا ثمرات العلم الى جوف أوربا . ولقد اتخذ الملوك والبابوات

أطباءهم من اليهود . ومن الأمثلة على ذلك أن طبيب الفونسو المقاتل ملك أراجون وإسمه بدرو الفونسو ، كان يهوديًّا فاستنصر . وكذلك بولس ريفيوس طبيب الامبراطور مكسمليان الأول ، كان يهوديًّا وظل كذلك ، وقد درس في أسبانيا حيث ترجم كتاب أبو القاسم وهو كتاب قال فيه « هالر » انه « النبع العام » في صناعة الطب

وقد انحدر الينا ان العرب أجروا كثيراً من العمليات الجراحية لم يكن يعرفها القدماء كما أضافوا الى الصيدلة بضعة مركبات كيماوية ذات أثر كبير في تقدم ذلك العلم .

* * *

إذا أغضينا عن ذلك كله ، فلم عندنا دليل آخر على ما كان للعرب في علم الطب من أثر ورثته أوربا ، في أن جامعة « سالرنو » التي انتشرت روائحها في جميع انحاء أوربا ، إنما يرجع انشاؤها الى العرب .

يقول مؤرخ : منذ ما استرد روبرت جسكارد النورماني (سنة ١٠٠٠ م) مدينة سالرنو من القوم الذين يقال لهم العرب الذين احتلوا جنوبي إيطاليا أكثر من قرنين من الزمان ، وجد هنالك مدرسة تعلم الطب أسسها أولئك الكفار . ولقد دلته حكمته على أن يحتفظ بها وأن يؤيدها بالمال والنفوذ وجعل رئاستها لرجل يدعى قسطنطين أفريقانوس (أي الافريقي) ، وكان من بربر قرطاجنة أوقعته أسفاره ومخاطراته ، كالادريسي ، في يد النورمانيين بصقلية . وقد أوى به للنفوذ الرهبان في دير جبل كسينو الراهب المشهور دسيدريوس الذي صار فيما بعد البابا فيكتور الثالث . وعند أويته ترجم الى اللاطينية كل ما وقع اليه من كتب بني جلدته في صناعة التطبيب ، ثم ختم أعماله بتأسيس مدرسة سالرنو الطبية واليه يرجع الفضل في وضع كل المبادىء السارية في الطب ومنه أخذت .

وكذلك جامعة مونبلييه الفرنسية . فانها تعود في أصلها الى أهل آراجون (سنة ١٢٠٠ أو حوالي ذلك) الذين أخذوا عن العرب . فمعظم ما نقل اليها من العلم يعود الى العرب بطريق غير مباشر . ولقد كان العرب معلمو ذلك الزمان غير منازعين .

اسماعيل مظهر